

إيكولوجية الجماعات البسيطة

أ.د/ بن السعدي إسماعيل – أ/ لغريبي نسيمة - جامعة قسنطينة -

المقدمة

يمكن أن يكون المفهوم أكثر دلالة على حال ووضعية تلك المجتمعات التي تزامنها المستويات والظروف الاجتماعية والاقتصادية المحدودة، حيث يكون التطور فيها بطيئاً وجزئياً، ولا يشكل الرقي هدفاً وطموحاً لمجمل أفرائها أو أولوية في حياتهم، ولا يعني هذا غياب الرغبة في الحياة المتحضرة، بقدر ما يعبر على نوع من أنواع البساطة والقناعة في مختلف جوانبها، ولعل هذا ما أشار إليه بن خلدون في تمييزه بين المجتمع البدوي والمجتمع الحضري في اعتماد حياة الأول على الضروري والحاجي خلافاً للثاني.

ومن ذلك فالبساطة لا تعني على ما يبدو حياة الفقر والعوز المادي، بقدر ما تعبر عن خاصية ثقافية ووضع اجتماعي يميز هذا النوع من الجماعات، أو يعبر عن قناعة دائمة بالقدر المتوفر من الحاجة لأعضائها.

وإذا كان أمر تحديد مختلف أشكال المجتمعات البشرية وتطورها ظل محل اهتمام المفكرين على اختلاف تخصصاتهم، فإن تحديد وتصنيف أشكال الجماعات الفرعية في تلك المجتمعات يأخذ أبعاداً أكثر تعقيداً بالنظر إلى ما وصل إليه تطور وتغير المجتمع البشري ككل.

وسوف لن يعتمد المقال موضوع الدراسة مناصرة لاتجاه معين من الاتجاهات المنهجية أو الفكرية في التناول، بقدر ما يهتم بعرض ووصف جوانب من حياة بعض الجماعات البسيطة ذات الامتداد الزمني والمكاني، وعلاقة ذلك بالتغيرات التي طرأت في نشاطها وبيئتها بالمجتمع الجزائري.

الطبيعة والإنسان العلاقة الدائمة:

تؤثر الطبيعة بخصائصها المختلفة على مختلف جوانب الحياة الإنسانية، وأن تغير هذه الخصائص يؤدي بدوره إلى تغير جوانب الحياة الاجتماعية سواء في أنماط الأسرة وظروف الحركة والاستقرار أو في الأدوار وشكل العلاقات السائدة، ومن ذلك يتعين دراسة التفاعل بين الإنسان والبيئة، من جهة وبين النظم

والأنساق الاجتماعية من جهة أخرى، وهذا بالتعرف على الظروف الجغرافية والطبيعية السائدة، وعلاقات التكيف التي تتم بين الإنسان وتلك الظروف، ونوع العلاقة القائمة بين النسق الإيكولوجي وبقية الأنساق الاجتماعية¹.

إن للطبيعة دورا في تشكيل حياة الجماعات والمجتمعات وتحدد مسارات وأنماط علاقاتها، فهناك حياة الجبال وحياة السفوح وحياة البحر والصحراء ولكل من هذه الأقاليم الطبيعية مجتمعا مرتبطا في حياته بالشروط الطبيعية المميزة لهذا الإقليم أو ذلك، حيث يهيكل موارده وينظم قواعده نظمه بما يُكوّن لديه مرجعية شاملة في ضبط وتوجيه علاقاته المتعددة مع محيطه البيئي والثقافي. وقد كان ذلك واقعا منذ زمن طويل تدرج بكيفيات مختلفة ليشكل في كل فترة وضعا خاصا، وهذا ما فسح المجال أمام الباحثين لتقسيم وتصنيف هذه المجتمعات حسب المستوى الاقتصادي أو التوزيع الجغرافي، وذلك لما تشكله هذه الجوانب من أدوار مؤثرة في حياة هذه الجماعات واعتبار أهميتها حينما يتعلق الأمر بتنمية هذه المجتمعات.

وكان ابن خلدون من الذين أسسوا الاهتمام بهذا الاتجاه في تصنيف المجتمعات على أسس مازالت تشكل خيارات منهجية لدى كثير من الباحثين²، وخاصة حينما يتعلق البحث بمجتمعات شمال إفريقيا رغم التغيرات في كثير من بنى ووظائف هذه المجتمعات³.

فنجده يقسم العمران الذي يقصد به المجتمع إلى عمران بدوي وهو الذي يشمل الضواحي والجبال والمناطق المنتجة والفقار وفي أطراف الرمال، وعمران حضري وهو الذي يشمل الأمصار والقرى والمدن، ولكل منهما نحل في الحياة يمكن التمييز بينهما في عدد منها، وخاصة ما تعلق بالجانبين الإيكولوجي والنشاط الاقتصادي، ويمكن أخذ هذين الجانبين في الاعتبار لدورهما في حياة المجتمعات البسيطة التي منها المجتمعات الريفية والبدوية، رغم التفاوت الحاصل في المستوى الاقتصادي بين هذه المجتمعات الحضرية.

فضعف اقتصاد المجتمعات البسيطة وتخلفه يرجع إلى ارتباطه بالعوامل الطبيعية الغير مدعمة بالعوامل الأخرى وقابليته في توظيفها لإحداث التغيرات الإيجابية في شتى مجالات حياة هذه الجماعات، مما أدى بها إلى عدم الاستقرار على حال. فاعتماد البدوي مثلا على الماشية كمورد اقتصادي أساسي لا ينفي

ممارسته لبعض الأنشطة الأخرى لنقل البضائع التجارية وقيادة القوافل وممارسة الزراعة في بعض المواسم مثل الشعانبة في ورقلة.

كما أن العمران البدوي مرتبط بالبادية التي هي مفهوم ذو معنيين اقتصادي وجغرافي ومن ثمة فإنها تدل على السهل والجبل كما تدل على الصحراء، وجملة القول أنها تعني كل المساحة الموجودة خارج أسوار المدينة. ففي هذه البنية الطبيعية تعيش جماعات اجتماعية واقتصادية، يشكل عمرانها طريقة حياة البادية كما يشكل ثقافتها سواء كانت هذه الثقافة مادية أو لا مادية⁴.

فمساكن بدو الصحراء تتخذ عادة شكلان: سكن دائم وسكن متنقل، فالمساكن الدائمة تصنع على شكل منازل حجرية تبنى عادة من الحجر الجيري الذي يغطي بالجبس أو الطلاء الأبيض وفي معظم الأحيان تكون السقوف مسطحة والأبواب والنوافذ صغيرة بسبب ندرة الخشب وارتفاع ثمنه، وأحيانا ليس لها أبواب على الإطلاق ومعظم البيوت تتكون من حجرتين، أما الخيمة فهي السكن المتنقل الوحيد في الصحراء ومعظم الخيم حجمها صغير وهي نوعان: خيم صيفية و تكون مصنوعة من الخيش أو الأبسطه، وخيم شتوية تكون مصنوعة من الوبر وشعر الماعز⁵.

إن السكن في مفهوم الجماعات البسيطة يعكس بالضرورة نمط الحياة والحاجات الأساسية في الاستعمال، إضافة إلى تجاوبه مع الظروف المناخية والطبيعية، وعلى هذا الأساس فالمسكن هنا يتنوع حسب نمط حياة الجماعة وتركيبها ووظائفها وأن العرب الرحل هم سبب وجود وانتشار ظاهرة الخيام السوداء في شمال إفريقيا، وذلك بعد نزوحهم إلى هذه المناطق⁶.

فبالنظر إلى أسلوب حياة الجماعات البدوية المرتبطة إيكولوجيا واقتصاديا بالترحال وتربية المواشي، فإن المسكن أو الإيواء سيتخذ الإطار المتجاوب مع هذه الوضعية، ولذلك فإن مكونات المسكن المعد لهذا الغرض ينبغي أن تكون في المتناول بما يجعلها سهلة الاستعمال أثناء التركيب وال فك، وعادة ما تكون مثل هذه الإيواءات بسيطة مكونة من شعر الماعز ووبر الإبل، وهو ما يسمى عند العرب بالخيمة السوداء⁷.

ولاشك أن ارتباط مثل هذه الجماعات بالطبيعة جعلها أسيرة لها في علاقاتها حسب طبيعة الظروف البيئية المحيطة بها، فهي ملتزمة دائما بسيران الدورة السنوية في حركاتها وسكناتها.

وباعتبار الجماعات البسيطة تقيم في مواقع جغرافية معينة وتمارس نشاطات اقتصادية وسياسية ولها تنظيم اجتماعي وإداري يحدد طبيعة حكم علاقاتها، بالإضافة إلى ما يسود أعضائها من أهداف مشتركة وشعور بالانتماء⁸، فإن أهم ما يميزها اعتقاد الفرد فيها بسمو ورفعة جماعته التي يعتبرها أساس كل الجماعات في المجتمع، وعلى أساس ذلك تقيم الجماعات الأخرى والأشياء المحيطة بها بدرجة علاقاتها معها وهذا ما يعبر عنه (أدورنو) بالعرقية التي تعد من عوامل تقوية طرق التفكير والشعور عند الجماعات بما يعزز بناها التقليدية التي تحافظ على هويتها وعلى مجالها، ويقوي شعور الانتماء الجماعي والوحدة الداخلية بين أفرادها بما يؤدي إلى خلق تنظيم خاص بها⁹.

وأقرب أشكال المجتمعات إلى هذا الطرح هي الجماعات البدوية البسيطة التي تجد أحيانا غموضا في الفكر الاجتماعي بسبب حداثة الاهتمام بدراسة هذه الوضعية في الفكر السوسيولوجي، وأيضا بسبب المنطلقات القائمة في هذا المجال¹⁰، فالمجتمعات البسيطة تشكل مرحلة من مراحل تطور المجتمعات البشرية¹¹.

فالبداوة تمثل نمط الحياة القائم على التنقل لكسب العيشة والحفاظ عليها، ويتعلق ذلك بما توفر من الموارد الحياتية عبر مجال التنقل (مما يعني أن مجال الاستقرار الجغرافي عند البدوي هو المجال الاقتصادي¹²).

إن الحياة البدوية تتحدد في ثلاثة عناصر أساسية، حيث أن البيئة قد تكون عنصر جذب أو طرد بالنسبة للجماعة، وذلك حسب ما يتوفر فيها من موارد وما يسودها من مناخ، ومن ذلك يتحدد نمط الحركة وهو العنصر الثاني وذلك حسب المدة والمسافة، أما العنصر الثالث فيتمثل في نوع النشاط الاقتصادي الذي يميز الجماعة.

المجال والنشاط وعوامل التغيير:

لاشك أن ما هو معني بالتحليل في ذلك هو الجماعات البسيطة التي يقوم نشاطها على الرعي وتربية الماشية التي تكون إمكاناتها محدودة، وهذا قبل أن يتمكن البعض منها من تحويل نشاط الرعي إلى تربية المواشي في مساحات مغلقة.

وفيما يتعلق بتأثير التغيير في هذه الجماعات، نجد أن العزلة وعدم ارتباط الجماعة بالجماعات الأخرى يؤدي إلى تقوية الروابط الداخلية، بعكس الوضع في

الجماعات المستقرة التي تمارس الزراعة واحتكت بجماعات أخرى فهي تكون معرضة لتغيرات كثيرة.

وعلى هذا الأساس تتعدد أنماط الجماعات البدوية حسب نمط الحركة، فهناك جماعات ذات التنقل الدائم من موقع إلى آخر خاصة تلك الجماعات المرتبطة بالرعي، وهناك جماعات ذات التنقل الموسمي وهو الترحال المرتبط بحالة فصول السنة، وذلك مثل رحلة الصيف والشتاء، ثم الجماعات المستقرة داخل الإقليم، ولكنها مرتبطة بحياتها البدوية وأنظمتها الاجتماعية وخاصة الجماعات ذات النشاط الزراعي الرعوي.

ولم تعرف مجتمعات شمال إفريقيا ظاهرة البداوة الترحالية قبل النزوح المشارقي، وإنما وكما سبقنا الإشارة إليه من أن مجتمعات الصحراء في الجزائر كانت مجتمعات مستقرة ذات نشاط رعوي زراعي خاص، وهي حالة واد ريغ وواد ميزاب بالجنوب الجزائري.

فحياة التنقل والترحال بالجزائر تشكل ثقافة غير محلية، إذ يرجع انتشارها إلى توافد الرحل الهلاليين وهي قبائل لم تكن محاربة على ما يبدو، ولكن هجرت بفعل انتقام سياسي حينما كانت بصعيد مصر، وهي القبائل التي ألقت حياة البساطة من الرعي وسكن الخيام والحل و الترحال بحثا عن الكلاء.

وفي المقابل كانت هناك جماعات زراعية محلية دأبت في حياتها على ممارسة الفلاحة والرعي جنبا إلى جنب، مما جعل محيط حركتها معلوما ومحددا وإن تغيرت ظروف التعامل، إلا أن مجالات استقرارها مازالت لم تتغير مثل قبائل الأوراس وجرجرة والونشريس وغيرها من قبائل الشمال الجزائري المحلية.

وإذا كانت قبائل البدو الرحل قد استوطن بعضها بالمدن خلال الاحتلال الفرنسي للبلاد، والذي فسح المجال لعدد من المتعاونين معه من القبائل في الدخول إلى المدن وتمليكهم الأراضي والعقارات كمكافئة لهم على عدم القيام بالثورة ضده، فإنه بالمقابل شكلت الجماعات الزراعية الرعوية المحلية قلعا مستمرا للفرنسيين الذين أخذوا بمطاردتهم في بيئاتهم الجبلية والسهلية التي كانت مواقع استقرارهم ونشاطهم.

فالجماعات المحلية التي دأبت على استغلال الأرض واستثمارها، كان لها نظاما متوازنا بين مجال الزراعة ومجال الرعي، حيث تشكل السهول بما تحتفظ

تربنتها من عناصر ملائمة للزراعة أفضل مجال للنشاط في هذا القطاع، بينما تبقى المساحات الغابية هي المجال المخصص لتربية الماعز الذي كان الحيوان الأكثر تكيفا مع هذا الوسط، ومازالت إلى اليوم تنتشر قطعانه عبر المجالات السابقة، وإلى جانب ذلك أخذت بعض الجماعات المحلية في تربية الماشية وخاصة بعد خروج الفرنسيين من البلاد حيث تمت عودتهم إلى السهول الزراعية التي كانوا ينشطون فيها قبل ذلك، وهي المساحات التي استوعبت توسيع وتنوع الاستغلال في مختلف القطاعات الفلاحية، وهذا ما مكنها أيضا من تركيز استقرارها العمراني وإنشاء تجمعات سكنية متقاربة، منها ما شكل نواة للمدن المتوسطة الحالية، وتوسع المدن الكبيرة وبالتالي تعزيز خيارات الاستقرار والتمدن لديها، وساعد على ذلك عدة عوامل منها:

- الاجتياح المستمر لقبائل الرحل على الملكيات الزراعية مما يتطلب التواجد بقربها لخدمتها وحمايتها.
- العامل السياسي الهادف إلى إيجاد مناطق سكنية مجمعة للقرويين.
- مشاريع القرى الزراعية في مناطق الشمال التي حاولت الدولة بعد الاستقلال من تجميع الفلاحين ليكونوا قرب مزارعهم وتعاونياتهم الزراعية.
- سعي القرويين إلى التجمع قرب طرق المواصلات العامة.
- الإقامة بقرب المواقع التي كانت مستعملة من قبل الفرنسيين، والتي تتوفر على بعض الخدمات كالكهرباء والماء والمدارس.
- التقرب من مواقع التمويل التي تمثلها التجمعات الحضرية.
- إدماج الأطفال في التعليم.

إلى غيرها من العوامل التي ساهمت في ظهور تجمعات متلاصقة المباني أو متقاربة الجوار و التي أنشأها السكان بإمكانياتهم الخاصة، وتطورت هذه التجمعات بشكل بطيء لاحتفاظ السكان هؤلاء بخلفيتهم وأراضيهم وأنماط حياتهم الخاصة حيث لم يشجع النظام الاقتصادي الاشتراكي بعد الاستقلال مباشرة على الاندماج لأسباب عدة يضيق المقام هنا لذكرها، ومن أهمها عدم توافق ذلك النظام وخصوصية السكان المتعلقة بالرغبة الشديدة لديهم في التحرر من كل القيود في ممارسة حياتهم.

ورغم ما ظهر من تحولات أساسية في حياة المزارعين من تحول في أساليب العمل الزراعي بل واعتباره كمصدر ثانوي لمعيشتهم بسبب بقاء هذا القطاع على وضعه التقليدي ولا يستجيب للمطالب والحاجات المتنامية والمتغيرة بالنسبة لظروف المعيشة التي وجدوا أنفسهم مجبرين على التعامل معها.

حيث أن إيصال التجمعات القروية بالخدمات العمومية كالكهرباء والغاز والماء وكذا قبولهم الإقامة في المساكن العمومية التي أنجزت في إطار برامج الدولة، كل ذلك يستدعي من هؤلاء تقديم المقابل المالي وتسديد الفواتير وهي الحالة التي لم يألّفوها في حياتهم السابقة، حيث كانوا يعيشون بلا مقابل على ما تقدمه الطبيعة لهم، ومن جهة أخرى بدأ يتحول نشاط معظمهم إلى العمل المأجور وفي مختلف القطاعات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، حيث أصبح ذلك يشكل مصدرا أساسيا لمعيشة أغليبيتهم، خاصة وأن التغير الذي حصل في المجال الزراعي لم يحدث بشكل شامل، إلا في بعض الفروع من النشاطات الفلاحية، كزراعة الخضر والفواكه وتربية الدواجن وقليل منها في تربية الماشية التي تقوم بها الجماعات الجبلية والتي أصبحت بدورها من حيث الإقامة تسكن في تجمعات قروية مجمعة مستفيدة في ذلك من مزايا التجمعات السهلية، مع بقاء نشاطها الثانوي مرتبطا باستغلال الأودية في غراسة الأشجار المثمرة مثلما هو الحال في التجمعات الجبلية بالأوراس والشمال القسنطيني والقبائل والونشريس، وهو نشاط قديم قدم هذه الجماعات المحلية. بمعنى أن الزراعة الجبلية ظلت تحتفظ بهويتها في كل المراحل ولكن التطور الحاصل بشأنها مس أساليب العمل في الغراسة وخدمة الأرض ومعالجتها بالأسمدة والتسويق والتحويل، وغالبا ما يشكل مثل هذا النشاط المصدر الأساسي لكثير من الجبليين.

النظام الاجتماعي من التنظيم الإيكولوجي:

إن التوزيع الإيكولوجي للجماعات قد يعني في بعض الأحيان ضعف الروابط بينها، سواء تعلق السبب ببعد المسافة بين الجماعات التي تفرض على نفسها نوعا من العزلة للاكتفاء الذاتي تجاه الموارد المتاحة والمحدودة، أو بسبب تدخل الحكومات لأجل إقامة تنظيمات محلية أو نظام إداري ذي تغطية محلية لمجموعة أو مجموعات محلية من القبائل في نطاق إقليمي محدد، وذلك ما يشكل نطاق حركة محدد لا يسمح في كل الأحوال بتواصل الجماعات لأجل تلبية حاجاتها وفق أساليبها الخاصة، وهذا ما يؤدي إلى توزيع مشتت للقبيلة أو

أن الريفية أصبحت لا تعني سوى ما ارتبط في أذهان الناس وأفكارهم عن ذلك الريف الفسيح الممتد المساحة وانتشار الزراعة وتربية الماشية والسكن التقليدي البسيط الذي يعيش فيه الأجداد والأحفاد؟ أم أن الريف امتدت إليه مؤثرات المدينة وأصبح مجالاً لممارسة الثقافة الحضرية، ولم تعد مهنة الزراعة أساساً في التمييز التقليدي بين الريفي والحضري؟.

إن المجتمعات الريفية التي كانت مصدراً من مصادر النمو الحضري من خلال الهجرة والإنتاج الزراعي والغذائي، أصبحت في المجتمعات الصناعية تشكل مواقع الاستقرار والتحول العمراني والاجتماعي بل ومجالاً للانطلاق الحضري الجديدة.

المراجع

- 1- أحمد أبو زيد: دراسات في الإنسان والمجتمع والثقافة، الجزء الأول المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1996.
- 2- أحمد أبو زيد: المجتمعات الصحراوية وتحديات المستقبل، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة، 1996.
- 3- عدنان أحمد مسلم: علم دراسة الإنسان، ط 3، جامعة دمشق، سوريا، 2003.
- 4- عبد القادر جغلول: الإشكالية التاريخية، ط 2، ديوان المطبوعات، الجزائر، 1981.
- 5 - عبد الغاني مغربي: الفكر الاجتماعي عند بن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982.
- 6 - محي الدين صاير: التوطين ومشروعاته، لبنان، 1961.
- 7- دينكن ميشال: معجم علم الاجتماع: مترجم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1986.
- 8- فاروق إسماعيل: التغيير والتنمية في المجتمع الصحراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1977.
- 9 - محمد عبد الفتاح محمد: تنمية المجتمعات المحلية، المكتب الجامعي الحديث، مصر، 1991.
- 10- سلطان محيبس: عصور ما قبل التاريخ، جامعة دمشق، سوريا، 2007 .

11- علي جباوي: الأنثروبولوجية الاجتماعية، دار الطباعة الحديثة، دمشق سوريا، 1983.

الهوامش:

- ¹ - أحمد أبو زيد - دراسات في الإنسان والمجتمع والثقافة - الجزء الأول المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة 1996، ص531
- ² - عدنان أحمد مسلم - علم دراسة الإنسان - ط3 - جامعة دمشق - سوريا - 2003، ص51
- ³ - عبد القادر جغلول - الإشكالية التاريخية - ط2 - ديوان المطبوعات - الجزائر - 1981، ص75
- ⁴ - عبد الغاني مغربي: الفكر الاجتماعي عند بن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1982، ص 131
- ⁵ - محي الدين صاير: التوطين ومشروعاته ~ لبنان 1961، ص45
- ⁶ - أحمد أبو زيد- المجتمعات الصحراوية وتحديات المستقبل - المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية - القاهرة 1996 ص 137
- ⁷ - أحمد أبو زيد: المرجع السابق - ص 139
- ⁸ - دينكن ميشال: معجم علم الاجتماع: مترجم - دار الطليعة - بيروت - لبنان - 1986 ص 49
- ⁹ - فاروق إسماعيل - التغيير والتنمية في المجتمع الصحراوي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر 1977
- ¹⁰ - محمد عبد الفتاح محمد - تنمية المجتمعات المحلية: المكتب الجامعي الحديث - مصر 1991 ص11.
- ¹¹ - سلطان محبيس - عصور ما قبل التاريخ - جامعة دمشق - سوريا، 2007، ص60
- ¹² - فاروق إسماعيل - المرجع السابق ص 138.
- ¹³ - علي جباوي - الأنثروبولوجية الاجتماعية - دار الطباعة الحديثة - دمشق سوريا = 1983، ص113